خطبة الجمعة 14-10-2011م الشيخ الطبيب محمد خير الشعَّال

سلسلة قرأتُ في كتاب

((الظلم مؤذن بخراب العمران))

الحمد لله.. الحمد لله ثم الحمد لله..

الحمد لله نحمده، ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمة للعالمين أرسله، أرسلهُ ربنا بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كلّه، ولو كَرِه الكافرون، ولو كَره المشركون، ولو كَره مَن كَرِه، اللهم صلّ على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد.. فيا عباد الله: أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإياي على طاعته وأستفتح بالذي هو خير :

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: 135]

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: 47]

عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن جبريل، عن الله تبارك وتعالى أنه قال: ((**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا...**)) [مسلم]

قال سعيد بن عبد العزيز: كان أبو إدريس إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه، وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى يقول: (ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث) .

وعن عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما. عن النبي صلى الله عليه وسلم، قَالَ: ((الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ)) [متفق عليه].

وعن أَبِي مُوسى رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ الله لَيُمْلِي للظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أخذه لَمْ يُفْلِتْهُ)) قَالَ: قرَأَ: ﴿وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [متفق عليه].

أيها الإخوة:

هذه هي الخطبة السابعة في سلسلة "قرأت في كتاب"، أختار لكم فيها فوائد منثورة في كتب قرأتها أو بعضها، ليفيد المرء علماً وعملاً.

عنوان خطبة اليوم:

(الظلم مؤذن بخراب العمران)

وهذا العنوان جعله ابن خلدون عنوان فصل في مقدمته المشهورة والتي أردتُ أن أقرأ لكم منها شيئاً، يقول ابن خلدون في هذا الفصل:

(اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها، لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابُها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك.

وعلى قدر الاعتداء ونسبتِه يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب، فإذا كان الاعتداء كثيراً عاماً في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملةً بدخوله من جميع أبوابها. وإن كان الاعتداء يسيراً كان الانقباض عن الكسب على نسبته.

والعِمران ووفوره ونَفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين. فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب

كسدت أسواق العِمران، وانتقضت الأحوال وابذَعَرَّ -أي تفرق- الناس في الآفاق من غير تلك الإيالة -أي السياسة- في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها، فخفتَّ ساكن القطر، وخلت دياره، وخربت أمصاره، واختلَّ باختلاله حال الدولة والسلطان.

وانظر في ذلك ما حكاه المسعودي في أخبار الفرس عن المُوبَذان صاحب الدِّين عندهم أيام بهرام بن بهرام، وما عرَّض به للمَلك في إنكار ما كان عليه من الظلم والغفلة، بضرب المثال في ذلك على لسان البوم، حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها، فقال له: إن بوماً ذكراً يروم نكاح بوم أنثى، وإنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب في أيام بهرام فقبل شرطها، وقال لها: إن دامت أيام الملك أقطعتك ألف قرية، وهذا أسهل مرام.

فتنبه الملك من غفلته وخلا بالمُوبَذان وسأله عن مراده، فقال له: أيها الملك إن المُلك لا يتم عزّه إلا بالشريعة والقيامِ لله بطاعته، والتصرفِ تحت أمره ونهيه، ولا قِوام للشريعة إلا بالمَلِك، ولا عزَّ للمَلِك إلا بالرجال، ولا قِوام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل إلى المال إلا بالعِمارة، ولا سبيل للعِمارة إلا بالعدل. والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة، نصبه الرب وجعل له قيّماً، وهو المَلك .

وأنت أيها المَلك عمَدت إلى الضِّياع فانتزعتها من أربابها وعُمَّارها – وهم أرباب الخراج ومَن تؤخذ منهم الأموال — و أقطعتها الحاشية والخدم وأهل البِطالة، فتركوا العِمارة، والنظر في العواقب وما يُصلح الضِّياع، وسومحوا في الخراج لقربهم من الملك. ووقع الحيف على من بقي من أرباب الخراج وعُمَّار الضياع، فانجلوا عن ضياعهم وخلُّوا ديارهم، وآووا إلى ما تَعذَّر من الضياع فسكنوها، فقلَّت العِمارة، وخربت الضياع وقلَّت الأموال وهلكت الجنود والرعية، وطمع في ملك فارس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع المواد التي لا تستقيم دعائم المُلك إلا بها.

فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر في ملكه، وانتُزِعت الضياع من أيدي الخاصة ورُدَّت على أربابها، وحُمِلوا على رسومهم السالفة، وأخذوا في العمارة وقويَ مَن ضعُف منهم، فعَمَرَت الأرضُ وأخصبت البلادُ وكثرت الأموالُ عند جُباة الخراج، وقويت الجنود وقُطعت مواد الأعداء وشُحنت الثغور، وأقبل الملكُ على مباشرة أموره بنفسه، فحسُنت أيامه وانتظم ملكه.

فتَفَّهم من هذه الحكاية أن الظلم مخرِّب للعمران، وأن عائدة الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتقاض.

ولا تنظر في ذلك إلى أن الاعتداء قد يوجد بالأمصار العظيمة من الدول التي بها، ولم يقع فيها خراب.

واعلم أن ذلك إنما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء وأحوال أهل المصر. فلما كان المصر كبيراً وعِمرانه كثيراً وأحواله متسعة بما لا ينحصر، كان وقوع النقص فيه بالاعتداء والظلم يسيراً؛ لأنّ النقص إنما يقع بالتدريج. فإذا خفي بكثرة الأحوال واتساع الأعمال في المصر لم يظهر أثره إلا بعد حين.

والمراد من هذا أن حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لا بد منه لما قدمناه، ووباله عائد على الدول.

ولا تحسبنّ الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور، بل الظلم أعمّ من ذلك.

وكل من أخذ ملك أحد، أو غصبه في عمله، أو طالبه بغير حق، أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه. فجباة الأموال بغير حقها ظَلَمة، والمعتدون عليها ظَلَمة، والمنتهبون لها ظَلَمة، والمانعون لحقوق الناس ظَلَمة، وغُصّاب الأملاك على العموم ظَلَمة، ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العِمران.

واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم،... وأدلته من القرآن والسنة كثيرة أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصر).

أيها الإخوة: إلى هنا ينتهي كلام ابن خلدون في الظلم العام والخاص، واسمحوا لي أن أختم هذه الخطبة بسرد خمس وقائع فيها ظلم خاص تجري فيما بيننا اليوم،

ليرجع كل منا وينظر إن كان ظالماً فليتحلل من مظلمته، حتى لا يكون مشاركا في خراب البنيان:

- تَلِفت تمديدات الماء في بيته، وقطرات الماء الآسن تنزل على الجوار وتؤذيهم، ومنذ أسابيع أو أشهر يراجعونه ليصلح ما فسد في داره من أنابيب، ويأبى قائلاً: من كان متضرراً فليقم بالإصلاح وليتحمّل نفقاته!!(**إنه ظلم الجار لجاره، والظلم مؤذن بخراب العمران**).

- ورثت البنات الأربع مع أخوين وأمٍّ شقتين سكنيتين ومحلا تجاريا، تسكن الأم مع واحد من أبنائها في إحدى الشقتين، ويسكن الأخ الثاني مع زوجه وأولاده الشقة الثانية، والمحل التجاري ذو ثمن بخس، ومع أن وفاة الأب كانت من سنوات بعيدة فلم تحظ بنت بحظها من الميراث إلى اليوم، وكلما طالبت فتاة بحقها هدَّدت الأم بأنها ستغضب على كل من تطلب من أخيها حقاً!! (**إنه ظلم الرحم لرحمه، والظلم مؤذن بخراب العمران**).

- يتصل رجل بزوجة صديقه في غفلة الزوج ليحدثها بالكلام المعسول ويعِدها الوعود المسمومة، حتى إذا علم الزوج بالأمر وراح يسأل هذا السيئ عن سوئه، أجابه بوقاحة: بأنه وجد امرأة تبحث عن مؤنس ومستمع جيد؛ إذ لم تجد في زوجها هذا الإنسان، فكان أن أخذ هو هذا الدور!! (**إنه ظلم المرء نفسه والظلم مؤذن بخراب العمران**).

- خرجت من بيت زوجها غضبى منذ شهرين، ولم تزل حتى اليوم في بيت أهلها، وكلما جاء الزوج إليها يدعوها إلى العود والإصلاح تبرّمت وتعالت وصدَّته، وليس يعلم إلى الآن أتريد زواجاً أو طلاقاً (**إنه ظلم المرأة زوجها والظلم مؤذن بخراب العمران**)
- للناس عنده ذمم مالية حان وقت سدادها، ومع أنه يملك المال الكافي للسداد غير أنه يتعلّل بالظروف العامة والأحوال الطارئة على البلد في عدم الوفاء (إنه ظلم المرء الناس، والظلم مؤذن بخراب العمران).

هذه وقائع خمس –أيها الإخوة– فيها ظلم خاص، ولا ريب أنكم ترون وتسمعون أشباهاً لها ونظائر، ونحن جميعاً مدعوّون لرفع الظلم الخاص حتى يرفع الله عنا الظلم العام.

أخرج ابن مردويه عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((يقول الله عز وجل: وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل ببادية كانوا على ما كرهتُ من معصيتي ثم تحولوا عنها إلى ما أحببتُ من طاعتي إلا تحولتُ لهم عمَّا يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي.

وما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل ببادية كانوا على ما أحببتُ من طاعتي ثم تحولوا عنها إلى ما كرهتُ من معصيتي إلا تحولتُ لهم عمَّا يحبون من رحمتي إلى ما يكرهون من غضبي)). [ابن مردويه وابن كثير]

و الحمد لله رب العالمين